د. سعاد درير

كلما ناداها رَجُلُهَا: "صغيرتي"...

مجموعة قصصية

إلى مَنْ لم أضمّهم قبل أن يَضمّهم الثرى...
قليل عليهم أن أعاقب نفسي بالبكاء إلى أن نلتقي.

د. سعاد درير

ظِلُّهُ المَارُّ مِن هُنَا

جو خانق خيم على سماء بيتي. وجدت من الصعوبة أن ألتقط أنفاسي الهاربة. صفقت الباب بضيق ومضيت أسابق أدراج العمارة. لم أعط الإشارة لقدمي بالمضي في اتجاه بعينه، لكن للتو وجدتني على مقربة من شاطئ البحر لما تسللت برودة الماء إلى قدمي الهاربتين مني. كأن تفكيري أصيب بالشلل. كل ما فكرت فيه هو ظله الذي مر من هنا في ما قبل موازيا ظلي. لم أحسب أني سأشعر بكل هذا الفراغ الهائل ما أن استقل الطائرة إلى بلده، وما كانت حياتي قبله فارغة إلى هذا الحد.

الرمال تعانق قدميّ بدفء، وتجتذبهما إلى صدر البحر أكثر فأكثر. إحساس واله بللني

كعصفور شارد لا يزيده الرحيل إلا انكسارا وما فتئ يبحث لجناحيه المرفرفين في دجنة الصمت المميت عن سماء تكفيهما.

من هنا مر ظله قبل أيام، الشمس تبحث عن سمرته الضاربة في الإشراق، الرمال تسأل عنه، والبحر يفتقده.

قادتني قدماي الهائمتان في سمائه إلى طاولة دون غيرها ملأناها فيما قبل بأنفاسنا المحلقة. واليوم تقودني أنفاسي المتعبة وقدماي العنيدتان إلى الطاولة نفسها. الغريب أن الطاولة ذاتها تحتفظ بكرسي يتيم وكأنه تحالف مع الرحيل ضدي.

ألقيت بجثتي الواهنة على الكرسي اليتيم، ومضيت أبحث لشرودي عن مكان لظل مَنْ مر مِنْ هنا في ما قبل. توقف عندي الزمن وأنا أسأل

الهواء عن أنفاسه. سقطت مني الأفكار تباعا وأنا أبحث لرأسي عن فكرة واحدة تشغله في غمرة الخواء الكاسح، وما كنت أجد لأفكاري متنفسا ولا لوقتي دقيقة راحة يوم كان هنا ظله يرافقني.

تأملت صفحة الطاولة المهجورة، فإذا بها تكابد الخواء نفسه وقد كانت في ما قبل محفلا لتصميمات مشاريعه المقبلة. الأوراق والأقلام والمساطر كانت شاهدة على رقي أفكاره وطول باعه في مجال الهندسة المعمارية التي قادت المكتب الفرعي هنا إلى التعاون معه، ولبى هو الدعوة مرحبا.

نسائم الغروب الحالمة تبحث لظلي عن ظله في أوج يتمي. ثقته في نفسه وفي أفكاره ما زادتني

إلا إعجابا بشخصيته رغم اختلافنا في الأفكار والطباع والجنسية.

الغريب أنه في كل هذا يترك الانطباع لدى الآخر بإعجابه به، بل ويعبر عن هذا بالكلام دون التلميح، بينما يحلق عائدا إلى بلده مسابقا طائر الشوق هادما كل المسافات بينه وبين من علقهم في حباله.

وها هو النادل الذي مر من هنا في ما قبل يقف عند بابي، يقرأ وجوم وجهي في تعجب ظاهر، يبحث في طاولتي عن أوراق وأقلام وتصميمات، ويبحث في يدي عن أصابع لا تعرف إلا الحماس والمزيد من الحماس للعمل الدؤوب.

قفزت واقفة مستعدة للفرار أول ما تلاقت عيناي مع عيني النادل وقد تقدم مستفسرا عن واجب الضيافة. شرود عيني وحيرتهما أخبراه بما لا حاجة لي به من أكواب عصير الليمون وفناجين قهوة مرة بعد أن رفضت قطع السكر الذوبان في ظل غيابه.

قادتني قدماي مجددا إلى الرمال المبللة بالحنين إليه. ظِل لا ظل له أصابني بدوار الحب الجارف ومضى إلى حال سبيله، ومضيت أنا أتعقب ظله كفراشة أصابها الضوء بمس من جنون.

البحر يقيد أنفاسه، وأنفاسي يختلسها رحيله.

مَوْعِد مَعَ الدُّمُوع

سألته في ثورة يأس بصوت لاهث وأنفاس متقطعة:

– "وعادل! ماذا أقول له؟ وبأي عينين أنظر إليه؟".

صمت قليلا، رمقها بنظرة مطولة تعلن تضامنه معها، واجتهد في إخفاء مشاعره الحقيقية. انتصب واقفا ما أن عبرتها رعشة باردة دفعتها إلى الانتفاض كعصفور جريح. ترك المكتب، استدار، تقدم إليها خطوتين، ربت على كتفها بحنان في موقف خانته فيه الكلمات. ما أن شعرت بحرارة أصابعه تتسلل إليها حتى استجابت لنداء البركان المشتعل بين ضلوعها، وفرّت العبرات من عينيها.

جذب الكرسي المقابل لها، جلس، نظر إليها وجها لوجه، دفنت رأسها بين كفيها، سقطت الدموع تباعا وكأنها تخرج من نافورة. انتظر قليلا وكأنه لم يجد المدخل الذي يدخل منه إليها، فكر في أن الدموع ستخفف إلى حد ما من تعب الروح، وحين أمهلتها الدموع أزاح بيديه عن وجهها ستار الشعر الحريري الملمس، أمسك بكفيها المتصلبتين كالصقيع، رتب فوضى دموعها، ورفع رأسها لتنظر إليه. وافقته في كل حركة بعد أن تمكن منها الانهيار.

لمعت عيناها في عينيه. بدت عيناها ذابلتين أكثر مما تصور. لأول مرة في حياته يكبر العالم، وتصغر عيناها الواسعتان، وكأن زرقتهما تواطأت مع الشحوب.

حاولت عيناه التملص من ملاحقة عينيها الباحثتين عن معنى لوجودها. أوقعه التملص في مزيد من الارتباك. دفعها ارتباكه إلى مطاردة عينيه أكثر فأكثر بحثا عن وميض، لكنها لمحت في وجهه خيبة أمل ثقيلة فشل في بعثرة حروفها. للتو استأنفت هي موعدها مع الدموع.

استدار إلى مكتبه متعب الخطوات، انحنى قليلا ليرتب بيدين مرتعشتين بعض الأوراق قبل أن يطوي الظرف الذي احتواها. خطا خطوة إلى المشجب المشدود إلى خزانة وضعت بمحاذاة النافذة العريضة المطلة على شرفة تنفتح على الشاطئ. خلع قميصه الأبيض، علقه على المشجب بعضلات منقبضة دون أن ينتبه إلى سقوطه أرضا. استرق النظر إلى المرأة الماثلة قبالته،

فطعنته روحها الميتة. أصابه منظرها بالإحباط، واختلط عنده إحساس الخيبة بمشاعر الشفقة.

خذلته عيناه. سرب دموع تلألأ في عينيه زاحفا وأوشك أن يفارق جفنيه المحترقين. لاذ بالفرار إلى الشرفة، فتح بابها فإذا برائحة البحر في عشية شتاء بارد تعبر أنفه، وإذا بموجة برد تتسلل إلى المكتب لتزيد المشهد برودا.

بحركة ثقيلة مسح عينيه، وعاد أدراجه إلى الداخل بعد أن أحكم إغلاق باب الشرفة. سحب الكرسي المخصص له من خلف المكتب، تناول منه معطفه القصير، ارتداه بصعوبة، استرق النظر مجددا إلى المرأة المتعبة المتهالكة، تمزق قلبه لرؤيتها ففكر في ابنه مباشرة.

امتعض من التفكير في اللحظة. بخطوات متثاقلة تقدم إلى المرأة، رفع رأسها، أزاح ستار الشعر الحريري الملمس عن وجهها، دفعها إلى النهوض، رق قلبه لضعفها وهي ترتجف بين يديه، جذبها إليه، ضمها بقوة. رشقتها حرارة دفئه بذكرى الأب الغائب، انتفضت بين ذراعيه كطفلة خائفة. عادت بذاكرتها إلى رحاب باريس حيث أنفقت أسبوعا في التسوق مع عادل، وحملت من هناك ما اشتهته العين والقلب من ألعاب ودمى وأفرشة صغيرة. بلمسة أبوية حنونة قبّل رأسها، فصحت على وقع قبلته الدافئة التي أعادتها إلى صخرة الواقع ووطأة الحقيقة. بلمسة أخرى تنقصها الثقة ربت على كتفها في دعوة منه لها إلى مغادرة المكتب. رمقته بنظرة حائرة مطولة مستفسرة، ابتلع

ريقه بصعوبة، واحتبس الدم في شفتيه قبل أن ينبس بكلمات متقطعة عارية من الحرارة إلا ما اصطنعه منها وقبل أن يصفق باب الرجاء الذي قرأه في وجهها:

- "سأخبره بطريقتي".

واختلس بعض الأنفاس ليضيف متحسرا:

- " لم أعوده على مواجهة المواقف الصعبة".

متهالكة أشد ما يكون التهالك تقدمت المرأة المبعثرة الروح، وتقدم هو متأبطا ذراعها مشتت الأفكار. قبل أن يفتح هو الباب إذا به يسمع طرقات خجولة، ثم يفتح البابَ من كان يحسب حسابه في هذه اللحظات.

- "عادل!"

تراءى له بهي الطلعة مشرق الوجه، لكن قبل أن تتواعد العيون على اللقاء إذا بابتسامة وجهه تنطفئ ما أن سقطت المرأة الشابة مغمى عليها.

استغرب عادل لما وجد الرجل المقبل على الستين يتعامل مع الموقف بمرونة، ويجتذب المرأة إلى المقعد دون أن يبدي كبير تأثر واندهاش لسقوطها.

قطب الشاب الوسيم حاجبيه مستعجبا، لكن الرجل لم يمهله وقتا للشرح، فما كان منه إلا أن ضرب على ظهر الشاب بحزم من يدربه على التأقلم مع موقف صعب قبل أن يتحرك إلى المكتب ليتناول الظرف ويضع نتيجة الكشف بين يديه.

ما أن مسح الشاب الورقة بعينيه حتى تدفق الدم إلى عينيه يليه شحوب جاثم أطبق على وجهه. ارتمى في حضن أقرب مقعد إليه، واستسلم في صمت لوابل من الدموع دون أن يهتز له جفن.

Nina Ricci

قبل أن تحكم قبضتها على فكرة هاربة، سمعت وقع طرق خفيف على الباب. تأففت لما شوش الطرق على ذهنها. التفتت إلى السرير فوجدت صاحبه قد نام. لن تعول عليه في أن يباشر عنها المهمة. أزاحت كومة الأوراق فوق المكتب عن طريقها. تراجعت بالكرسي إلى الوراء، وحاولت الوقوف متشنجة العضلات. ما أن تقدمت خطوة إلى الأمام حتى تعثرت في أسلاك لوحة المفاتيح، ثم سرعان ما انطفأ الكمبيوتر. تذكرت أنها لم تضغط على زر التحفيظ، فانفجرت ساخطة لأنها كانت تكتب بشكل مباشر، ولا تملك مسودة لتعيد كتابة ما ضاع من

القصيدة بعد أن استقر بها الإلهام عند عتبة الكمبيوتر.

تقافزت علامات التعجب على صفحة وجهها أول ما فتحت الباب. يا للغرابة! إنها تذكر جيدا أنها سمعت للتو طرقا خجولا ملحاحا. وها هي لا تجد أحدا في انتظارها بعد أن فتحت الباب. أطلت ذات اليمين وذات الشمال، ثم زفرت ناقمة كعادتها متسائلة من يكون هذا الوقح الذي أفسد عليها خلوة الكتابة وتسبب في فوضى أفكارها.

بلغ بها الامتعاض مبلغه، وما كادت تغلق الباب بعصبية وحنق حتى انتبهت إلى العلبة البلاستيكية الملفوفة بعناية. تملكتها الدهشة، وأخذت علامات التعجب تتراقص أمام عينيها

الناعستين. مسحت المكان بعينيها دون أن تعثر على أثر إنسي. فكرت في أن يكون ذلك الشيء قد وصلها خطأ، لكن سرعان ما انتبهت إلى أن الشقة الوحيدة المجاورة مهجورة منذ زمن.

انحنت، حملت العلبة بين يديها بكل رفق، دخلت، دفعت الباب بقدمها. عادت إلى غرفة النوم. استرقت النظر إلى زوجها فوجدته يتقلب على جانبيه فوق السرير وكأن به أرقا. تقدمت في خطوات حذرة إلى مكتبها وكلها حرص على عدم إيقاظه. استندت إلى الكرسي، وضعت العلبة برفق فوق المكتب.

لامست الغلاف البلاستيكي حريصة على استخدام أناملها فقط في فتحه حتى لا تثير صخبا وضوضاء. أزاحت الغلاف البلاستيكي

بلهفة طفلة، وسرعان ما أذهلتها المفاجأة لما اكتشفت علبة أنيقة تفوح منها رائحة أحب العطور إليها: Nina Ricci.

قبل أن تفتح العلبة وتستخرج قارورة العطر الآسر انتبهت إلى بطاقة صغيرة مرفقة. تلقفت البطاقة، فلمحت فيها توقيعا تعرفه تتقدمه كلمات قليلة:

"كل عام وأنتِ قصيدتي".

حملتها المفاجأة إلى سماء الفرحة، فإذا بها ترقص نشوة كفراشة محلقة لما تذكرت أن اليوم عيد ميلادها.

ضمت البطاقة إلى صدرها بحب، ثم وضعتها على جانب من المكتب. رشت بضع رشات من قارورة العطر. رمقت الرجل النائم على

السرير بنظرات من يدبر مكيدة. مدت يدها إلى وسادتها، رفعتها في مكر، وانهالت على ظهر الرجل ضربا بلطف. لم يحرك ساكنا، لكنه فشل في إخفاء ابتسامة مراوغة. فتح عينيه بلؤم مصطنع، فوجدها تتفحص قسمات وجهه باسمة العينين ولسان حالها يقول:

"كل عام وأنتَ مُلهِمي".

قبل أن تعيش اللحظة إلى آخرها هرعت إلى الكمبيوتر كمن تذكر فرضا لا يحتمل تأجيلا، فتحته بأسرع ما يكون، وجلست تكتب ملء البشاشة بعد أن حضر النص الغائب.

كلما ناداها رجلها: "صغيرتي"

"صغيرتي".

بهذه الكلمة الحبلى بالتوق وفيض الأماني بدأ يكتب لها والشوق بساط أبيض يحملها إلى كوكب الحب المعلق.

لم تسعفها عيناها الهائمتان لتقفز إلى السطر الثاني. مس من الجنون اجتذبها بقوة العشق إلى العالم الفريد الذي اختزل وجوده ووجودها معه على أرض الأحلام في هذه الكلمة المشتعلة: "صغيرتي".

تذكرت فجأة أنها ما عادت صغيرة حتى على الحب. هي تعرف أنها أصبحت امرأة ناضجة، ناضجة جدا. هكذا كانت هي تقرأ في عينيه كلما نظر إليها. لكنه كلما رآها كان يدللها

بهذه الكلمة الساحرة "صغيرتي"، وكان هو يعلم أكثر منها أن المرأة مهما تمددت على صفيحة العمر تظل تفتقد الرعشة التي تصيبها بالخبل الجميل كلما ناداها رجلها: "صغيرتي".

أنوثة آسرة تملكتها ما أن قرأت له أول سطر: "صغيرتي". تساءلت وقد تبدلت ملامح وجهها وكادت تمحي شبه ابتسامة خجولة ارتسمت على شفتيها الممتلئتين المتوردتين إن كان هو حقا يكبرها بعمر حتى يناديها: "صغيرتي". واستسلمت بمرارة للحقيقة التي لم تغب عنها يوما. بنبرة حزينة أطلقت العنان لتنهيدة متقطعة استدرجتها إلى الاغتسال بماء العينين لما اعترفت في أعماقها بأنه كان يصغرها بسنوات ولم تقرأ في عينيه هو يوما فارق السن هذا.

رجلا في كامل الرجولة كان هو لما انتبه إلى أن الأنثى مهما غرقت في وحل الزمن تظل في قطيعة معه، مهما جرف الزمن رجليها تظل لا تعترف به، وكان رجلها هي فارسا يجيد فنون المبارزة بالكلمة، والانتصار حليفه.

وها هو فارسها بكلمة واحدة يمتلكها ويمتلك العالم من حولها لما امتشق نية البوح بعاطفته المحمومة التي أشعلت نيران العاطفة الملتهبة في صدرها ما أن عبرت السطر الأول لا غير: "صغيرتي".

حتى قبل أن تبللها بحروف العين، لم تكن هي في حاجة إلى أن تمسح بعينيها ما تبقى من أسطر مترنحة على صفحة الرسالة المغتسلة بحروف الشوق المصلوبة على شجر اليأس الذي أزهر في

قلبها العاشق. وكم كان هو يدري ما تكونه امرأة عاشقة.

"صغيرتي". هذه الكلمة الخفيفة على لسانه والثقيلة في ميزان العشق كانت كفيلة هي وحدها بأن تقلب قلبها الغر على جمر النوى وأن تفتح لخفقاته أبواب مدن المستحيل.

"صغيرتي". هذه الكلمة وحدها تراءت لها بمثابة درس يلقنه رجلها لكل الرجال، وتحديدا لمن شاء منهم أن لا يخفق في مدرسة الحب.

"صغيرتي". قرأتها عشرات المرات وقد اغرورقت عيناها، فارتسمت في سديم الدموع صورة فارسها النبيل وهو يضيء ليلها البارد ويقف في شرفة القلب ناثرا عبقه على أمواج الذكرى من ألف الممكن إلى ياء المحال.

"صغيرتي". الكلمة نفسها تلك قرأتها هي مرارا، واستسلمت لنداء مجهول يسحبها إلى أمسيات قديمة في معبد الحب حيث كان رجلها يردد على سمعها كلمات أشبه بصلاة مرابط في محراب القلب والعين.

في رحم الكلمة الواحدة (صغيرتي) تناسلت الكلمات المعلقة على حبل الذاكرة، وما أجمل أن تسقط الكلمة الواحدة منها على سمع امرأة عاشقة.

في غمرة عناق الحنين والاستذكار أجهشت المرأة بالبكاء وقد بددت الكلمة الساحرة في السطر الأول كل رغبة في الابتعاد أكثر فأكثر.

"صغيرتي". الكلمة تلك مع ما فجرته من أحاسيس شوق دفينة، كانت كفيلة بأن تدفع المرأة

إلى رفع راية الصفح ونسيان كل جرح تعلم هي علم اليقين أنه غير مقصود من جانب رجلها الرقيق.

"صغيرتي". الكلمة تلك التي ملكتها في رمشة عين، جعلت الدموع تغرق في سماء الفرحة التي خيمت على تعابير وجهها وهي تضم الهاتف الخلوي إلى صدرها وتطبع قبلة محمومة على شاشته ممتثلة لنداء قلبها.

ما أن لامست شفتاها كلمته الرقيقة (صغيرتي) المبثوثة على شاشة الهاتف حتى قفزت على باقي السطور التي قرأتها بقلبها لا بعينيها، وللتو ضغطت على زر الإجابة مركبة حروف كلمة واحدة لا أكثر تعقد مصالحة القلبين: "أحبك". ثم أطلقت ساقيها للريح عازمة على استعادة فارسها

بخفة فراشة محلقة مغمضة العينين. فتحت الباب لتطير إليه، فإذا بها تشهق وتخر قدماها أول ما اصطدمت بقامة فارعة احتوتها بكل الدفء. كان هو على الباب.

أُمُومَة

بعينين منخطفتين أطل عليها من شرفته الحانية متوجسا خشية أن يفسد عليها عملية إرضاع صغيريها. بدت منكمشة في ركن منزو قبالة شرفة الطابق الأول. فغر فاه مندهشا من الدفء الذي غلفت به الأم المشهد لحظة أسدلت عينيها العسليتين وكلها حرص على ضم الصغيرين على الرصيف بقوة هائلة.

طراوة كتلة اللحم التي تشكل منها الصغيران لا توازيها إلا طراوة وجه الأم الصغيرة البيضاء الحريصة إلى أبعد حد على الاستسلام لغريزة الأمومة وكأنها تمارس الإحساس ذاك لأول مرة.

شعور طافح بالحنين إلى صدر أمه تسلل إليه وما بارحه، وإن شابه شعور آخر غريب للغاية

اختلجته تنهيدة عميقة اختزلت معنى الفقدان لما تذكر فجأة حضن زوجته الذي ضل الطريق إليه عقب ولادة عسيرة انتهت بموتها وموت الجنينين اللذين حملتهما وهنا. وطأة الذكرى لفحت صدره العريض وأرهقت عينيه. فما كان منه إلا أن استنشق نفسا عميقا من السيجارة الذائبة بين أصبعيه.

تأمل من جديد مشهد الرضيعين في حضن أمهما فانتابه شعور بالغيرة من دفء الأم التي ظل يفتقدها دائما منذ أخذها منه بالقوة زلزال مدمر ضرب المدينة قبل أن يطفئ هو شمعته العاشرة.

أخذ نفسا أطول من السيجارة التي لم يواز احتراقها إلا احتراقُ قلبه الذي عبثا حاول أن يمتص عرق الذكريات.

تسللت حرارة الذكرى إلى يده لما أحس بما تبقى من أصبع السيجارة المحموم يكاد يحرق أصابعه. بخفة أطفأ عقب السيجارة في حافة حوض الحبق الذي توسط جدار الشرفة الممتلئ، وألقى بالعقب أرضا.

في حركة ثقيلة تحسست الأم صغيريها على وقع العقب الملقى غير بعيد عنها مضمرة رغبة جامحة في مقاومة العياء الذي استقر بها تحت الشرفة تلك، وعيناها على الرجل الذي ارتشف بإحساس مرهف قهوته المرة في ضوء مشهد الأم المتهالكة وكل همها احتواء صغيريها احتواء من يتحسس خطرا محدقا لا طاقة له عليه.

من شرفته الحانية بادلها إحساس الأمومة بسخاء. ومن موقعها هي أسفل الشرفة رمقته

بنظرات تستجدي العطف، وكأنها تلتمس العذر بعد أن ربضت أسفل شرفته دون استئذان.

أطالت إليه النظر بعينين متوسلتين وهي تضم إليها صغيريها بقوة من يقاوم الوهن إلى آخر نَفَس.

ساورها بعض الارتياح لما غاب الرجل فجأة عن الشرفة. وما أن كادت تسدل مجددا عينيها العسليتين حتى انتفضت لرؤيته قادما في اتجاهها وفي يده صحن صغير مملوء عن آخره بالحليب، وضعه قريبا من فمها وشرع يدلك بحنان على رأسها، فما كان منها إلا أن اطمأنت إليه، وأطلقت العنان للسانها تلعق السائل الأبيض الدافئ إلى أن مسحت الصحن، وعيناها للرجل شاكرتان ملء المواء.

غَابَتا نَخِيل

على الأريكة الجانبية ألقيتُ بجثتي المتعبة، ثنيتُ ساقيّ وطوقتهما بذراعيّ، ودفنتُ رأسي بين ركبتيّ. تواطأ سواد الأريكة الجلدية مع سواد الليل بعد أن أطفأت المصباح. حقا قرفتُ من الضوء. وكيف لي أن أستلذ الضوء بعد أن انطفأت عيناي أو كادتا؟!

مرغتُ وجهي في خصلات شعري السوداء الكثيفة التي انسابت فوق ركبتيّ كذيل حصان، ثم أطبق الصمت مجددا.

مضيتُ أسترجع ما قاله أخصائي العيون عند آخر زيارة. لقد أثقلت العدسات اللاصقة كاهل عينيّ إلى أن تورمت قرنيتاهما.

ـــ "وبعد؟"

سألتُ الطبيب متوجسة خيفة.

ــ "لا شيء".

أجاب الطبيب ببرود معتاد علمته إياه أفواج المعتلين بصريا. ماذا عساه يقول! الرؤية والعمى عنده سيان بحكم وظيفته.

من فرط حماقتي، نسيت مأساة عينيّ، وكان كل ما فكرت فيه هو أمجد.

أمجد!

ــ "كيف سيتقبلني أمجد بنظارات سمكها من سمك قاع كأس الزجاج؟!"، تساءلت ببلاهة. إجابات كثيرة أبحث عنها لأسئلة تدور في رأسي الثقيل، وكل همي رد فعل أمجد. من حيثما قلبت الأمور أنتهي إلى لا شيء. ولا أستقر على حل

يرضي أمجد على الأقل. أي مشكلة هذه زجت بي فيها عيناي!

عيناي! لولاهما لما نظر إلي أمجد يوما. مرارا قالها بالحرف:

_ "ما ورطني غير عينيكِ".

كان يقولها مزهوا بنفسه كأنه فتح فتحا عظيما، وكأني بدون هاتين العينين لا أساوي شيئا في ميزان عينيه. أيعقل أنه يختزل كل هذا الكيان الذي تسكنه المرأة القابعة فيّ في عينين لا أكثر؟!

أمجد!

اعترف لي غير ما مرة بأنه يعبد عينيّ. توسلتُ مرآتي مرارا أن تجيبني بدلا منه عما يكون سر عشقه الملتهب لعينيّ، لكن البائسة مرآتي تتحالف مع أمجد ضدي.

كان يردد في أكثر من مناسبة ويقول إن عينيّ مركز كونه. معقول! أذكر أني كذبتُه مستاءة حين أخبرني بأن عينيّ بركتان تكفيان ليسبح فيهما، مع أني سمعت في أكثر من مناسبة ومن عدد من الذكور قصائد في جمال عينيّ. أخبرته يوما بهذا الذي سمعته، فثار في وجهي صارخا:

ـــ "وحدي أنا من يحق له أن يمطرك بالقصائد هاته، ولا يحق لكِ مطلقا أن تعطي الفرصة لسواي حتى يتغزل بجمال عينيكِ".

دون أن يكمل كلامه صفق الباب بقسوة ومضى.

يومها أخبرتُ أمي عن سبب خصامنا، فقالت إني تسرعتُ في اختياري قليلا. ما كان مني إلا أن أدرتُ خاتمه الملتف حول أصبعي مستعذبة في آن تعلقه بي وقسوته عليّ. أدرت

خاتم أمجد بحب بعد أن عجزتُ عن إدارة الحوار مع أمجد.

مع الوقت تعودت على قسوة أمجد وغضبه حتى خلتهما ملح الطعام. لكن من يتعلم من الدرس؟! ومن يعتبر؟!

صراحتي المعهودة أشعر أني بدونها أتحول إلى امرأة أخرى. ويوم صارحته بما قال أستاذ اللغة في حق عينيّ، ثار أمجد وقام ولم يقعد.

أخبرته من باب الدعابة فقط أن الأستاذ عندما درس لنا شعر بدر شاكر السياب وقف مطولا عند تشبيه السياب لعيني حبيبته بغابتي نخيل ساعة السحر. لكن أستاذنا المرِح ما أن فرغ من التشبيه حتى حدق فيّ باسما وهو يقول لزملائي:

ـــ "انظروا إلى عيني زميلتكم تجدون تصوير الشاعر مجسدا"، وقهقه الجميع.

إيـــــه! يومها ثارت ثائرة أمجد وتساءل غاضبا لماذا يقول الأستاذ هذا الكلام إن لم يكن يبيت نية... شرحت له مطولا أن أستاذ اللغة معروف بروح الدعابة في الكلية بأسرها، وأن ابنه زميلي في الفوج نفسه، ولا يسعه إلا أن يثمن دعابة والده الذي يميل إلى الفكاهة مع أنه في الأصل يعتبرنا جميعا بمثابة أبنائه. لكن هل يفهم أمجد هذا؟! لا حياة لمن تنادي.

أظن أن شعرة لئيمة لامست جفنا لي، فوخزتني بحرقة وقد نال الالتهاب من عينيّ. الوخز نفسه هذا كان كفيلا بإطفاء عود ثقاب الذاكرة وتذكيري بورطة عينيّ وأنا جالسة على الأريكة

نفسها. فكرتُ مجددا فيما إذا كانت عملية جراحية دقيقة ستنهي الأزمة وتحل المشكلة. لكن الطبيب قال إن أمرا كهذا يحتاج إلى مخاطرة لأن الأمل ضعيف، وأكثر من هذا فإن الأمر يحتاج إلى وقت وأعصاب باردة.

فكرتُ مجددا في أمجد وما عساه يفعله بمستقبلي معه إذا فقدت نور عينيّ بشكل نهائي. أدرتُ تلقائيا خاتمه الملتف حول أصبعي كشكل من أشكال الهروب من الفكرة.

حدثتُ نفسي بأن أجرب أن أفاجئه في الغد بنظاراتي الطبية السميكة. صرختُ للتو مستاءة:

_ "كم هي مقززة!".

وكونتُ فكرة مبدئية عن رد فعل أمجد بناء على رد فعلي التلقائي هذا كلما استحضرت مشهد النظارات الطبية.

ـ"سيقرفه شكلي مؤكد..."، تساءلتُ بعصبية وانكسار جلي.

فكرتُ مرة أخرى في شكلي بالنظارات مهما لبستُ وتزينتُ. المشكلة أن عينيّ لا تبدوان بالكاد من خلف سمك زجاج النظارات.

وأنا في غمرة حيرتي، انتبهت إلى طيف أمي يعبر الردهة في ارتخاء وهي تسأل باندهاش:

ـ "ألم تنامي بعد؟".

ـ "ليس بعد، ربما بعد قليل أفعل". أجبتُ واهنة.

اقتربت مني أمي، لامست يدها شعري بحنان، ربتت على كتفي، وقالت هامسة:

ـــ "فعلتِ ما عليكِ، فاتركي الباقي على الله". تثاءبت أمي مستسلمة لنوم عميق، وعادت إلى غرفتها.

تمددتُ على الأريكة، ولمتُ نفسي بقوة لأني لم أخبره بأمر العدسات اللاصقة منذ البدء. أطلقتُ تنهيدة وأنا أتمتم في ضيق:

ـــ "لو أنه عشق روحي ما تزينتُ له".

ما هي إلا غفوة عابرة حتى أيقظني شعاع الصباح المتسلل خلسة، فذكرني بشعاع عينيّ المنحسرتين، ومضيتُ أرتب لأمجد سيناريو حقيقة لا تليق بانتظاراته.

أشياؤها تناديني

الرجل!

الرجل لا يبكي. وهل من رجل يبكي؟!

أعزي نفسي بهذا الكلام منذ رحيل غاليتي نجوى.

نجوى! غاليتي الحبيبة، دون كل النساء اخترتها وقد جمعت هي من البساطة والحسن ما يعز على امرأة سواها أن تضاهيه.

في حياتي لم أبك بقدر ما أبكي الآن وقد خلفت نجوى وراءها كل هذا الفراغ. غرفتها حرمتُ على نفسي دخولها مذ رحلت، يسألني عنها السرير والوسادة والمرآة وأطباق الطاولة وطاقم الشاي وزرع الشرفة، وحيثما رميتُ عينيّ أجد أشياءها تناديني.

معتل القلب، منكسرا، أمد يدي إلى كل مكان أتصور كفها تمتد فيه إليّ، مصافِحة، مطبطِبة، مستنجدة من التراب الذي تلقفها مزهوا بانتصاره في غمرة وهني وشجني.

من أين أبدا البكاء على نجوى، وقد اختزلت نجوى كل النساء؟

أقف الآن كجدار منسي يعوزه الدفء. بين غمضة عين وأخرى تتسلل إليّ ضحكاتها وهي تفر مني هاربة في حدائق الحب حيث كنا نلهو ونركض كمجانين لم يحسبوا حساب الخطوة الأخيرة التي أعادتهم إلى الصفر.

خلسة تتسلل إليّ أنفاسها المتقطعة وهي تقاوم الغرق في شاطئ العمر حيث افترشنا أحلام الظهيرة وانتشينا بتجديد دماء طفولتنا الهاربة.

نفسه الشاطئ التي اختطفها مني بعد أن أغرتها موجة متعطشة للحياة بالرحيل، وطفقت تجرها كورقة تتلاعب بها الريح.

اليوم أجدني وحدي أغتسل بدموعي التي تنساب قصائد تهز الروح وتشق قلب الحجر. وحدي أعيش مع ذكرى نجوى التي علمتني معنى اليتم، كما علمتني قبل كيف أكون رجلا ينشد إلى حضن أمه.

بعد نجوى ما عادت ثمة امرأة تملأ عينيّ، وما عادت عيناي تريان أكثر من طيف خيال نجوى. بعد نجوى ها هي الحياة تقف على قدم واحدة، وأقف أنا معلقا على عمود ذكراها الغالية، فاقدا للهوية، فاقدا لغريزة حب البقاء، ولا أحب إلى نفسي من أن ألتحق بنجوى اليوم قبل الغد...

حينها فقط ينتهي موال البكاء، ويسقط سوط الألم، وتتعانق روحانا كفراشتين حالمتين إلى الأبد.

عساها لا تردني

مع كل دقة قلب ها أنا أنتظر عودتك، أختلس السمع إلى بياض الباب علك تخترقه مجددا بزوبعة طرقاتك. في وجهي تصرخ جوارحي كلها: "أحبك"، أحبك، أحبك حد الجنون".

قليل عليك أن أقول: "اشتقت إليك، اشتقت إليك، اشتقت إليك شوق دموعي إلى منديل حنون يستوعب حرقتها نخب رحيلك المفاجئ يا كُلّي.

لمساتك الدافئة، قبلاتك المطولة الحافلة بالصدق، وعناقك الجنوني يا عناقك كلما تُقْتَ إلى أحضاني...

شرودك الطفولي، قهقهاتك الصاخبة عقب غضبك المصطنع، جنونك البريء... كيف لي أن

أنساك وما لي طاقة؟! كيف أنسى صراخك كيف؟! كيف أنسى تمردك بالبكاء كلما طمعتَ في قطعة شوكولا يا قطعة من قلبي وقلبها؟!

مرارا كنتُ أحدث نفسي بموعد رحيلك عاجلا أم آجلا، وما برحت أسر إلى قلبي بأنها ستقرأ في عينيّ وعينيك آيات الحب وتلتقط نبض العاطفة الملتهبة. مرارا أوهمتُ قلبي بأنها ستمدد فترة بقائك عندي، وخلافا لكل أقرانك تعلقتُ بك حد الخبل، بينما إليهم أحسنتُ. أتراها أسقطت من حساباتها أنني أول من فتحت عليها عينيك يا روعة عينيك؟!

وعدت نفسي أول ما تطلع شمس الغد أن أفاتحها في أمر تمديد إقامتك عندي رفقا

بانشغالاتها الدبلوماسية وبقلبي. ووددتُ لو قلتُ لها ملء فمي:

_ "لا، ليست الأم من وضعت. الأم من ربت وسهرت وحملت بين ذراعيها وطبطبت و... و... و...".

أولستُ أمك الثانية يا بعضا مني؟!

عساها لا تردني خائبة.

مكافأة

ـــ "(...) إنسانة غير طبيعية أنتِ!"

ما أن تكسرت كلماته الأخيرة على سطح أذنيها حتى استسلمت لوابل من الدموع عَلَّهُ يغسل تضحياتها الجسيمة. أيعقل أن تتحول التضحية إلى خطيئة في هذا الزمن المقلوب؟!

ظلت كلماته تلك تسمم أذنيها هي التي طفقت تدلك سمعه بأطيب الكلمات، وما خدشت سمعه يوما بكلمة خشنة طوال سنوات الجمر، رغم تقصيره هو.

دون أن تترك له متسعا للاعتذار أو للمزيد من التجريح بلا سبب منطقي يُذْكَر، انسحبت كالضوء الشارد في صمت، ولاذت بالصمت رغم اختلاجه بصخب الدموع.

كانت خطاها تنأى بها بعيدا وهي تقاوم ما كان يقذفها به من اعتذارات دافئة. وهل ينفع اعتذار بعد أن قال هو كل شيء؟! وهل ينفع صفح بعد أن قتل الروح البريئة؟!

لم تأبه بنداءاته ولا باستعطافه وهي تشد الخطى إلى كبريائها الجريحة على طريق الندم. كانت تحرق المسافات الممتدة أمامها وهي تحلب الذكريات المترامية على مر العين...

ما تصورت يوما أنه سيحرق القشة التي تعلق بها ذات غرق، أو أنه سيجعل من الورقة الوحيدة الرابحة ورقة خاسرة لحاجة في نفسه.

وهي تلقي بجتها في دائرة التيه، كانت تُسِرُّ إلى نفسها ملء السديم بـ: "اتق شر من أحسنت إليه".

وداعا حبيب العمر

أعلنتها حربا ضد نفسي، وفي اليوم ذاك أشهرتُ انسحابي. رفعتُ كل رايات استسلامي، ومضيتُ إلى حتفي وحيدة تستدرجني حفرة موتي شيئا فشيئا.

قررت أن أتحمل كل شيء، أن أتحمل خنجر الفراق وهو ينغرس في صدري بعمق إكراما لزوجته. لم أجرب معنى أن يعيش رجلي بروحه مع أخرى، بينما يترك لي جسده أعبث به كما شئتُ كأنه جثة هامدة. وهل من تجاوب حسي في غياب الروح؟! هكذا فكرتُ في زوجته. فهو كان يعيش معي بروحه، بينما كان جسده جاثما إلى جوارها في سرير الرغبة الفاترة.

لم أنتظر حتى يتشتت عشها أكثر فأكثر. فمجرد وجودي، ولو كخيال شارد في ذهنه، كان يكفي لأجردها هي من سيف أي ارتباط عائلي يُذْكَر.

مع أنها إلى الحين ذاك لم تمسك عليه دليلا واحدا يثبت خيانته لها (خيانة روحية فقط)، فإنني وضعتُ نفسي مكانها مرارا، وشعرتُ مكانها بأمر وأقسى شعور يمكن أن تكابده امرأة: الفقدان! وما أدراك ما الفقدان! الفقدان التدريجي لقلب رجل تحبه.

إلى متى كنت أنتظر؟! فروحه كانت قد غادرتها منذ مدة. تساءلتُ مرارا: أكنتُ أنتظر إلى أن يرحل عنها بجسده أيضا؟!

لم أكن أصدق إلى الحين ذاك أنها لم تشعر بشيء بعد. أما كانت تشعر هي حقا بوجود امرأة ثانية في حياته؟! أم أنها كانت تُكَذِّبُ ظنونها؟ وإن كانت لم تشعر بوجودي حقا في حياته، ماذا لو أنها كانت قد كشفت أمر الرسائل القصيرة المتبادلة بيني وبين زوجها؟ وهل من امرأة عاقلة تتسامح في شيء كهذا؟!

إنه لأهون على المرأة أن يذهب رجلها بجسده إلى ألف امرأة غيرها على أن تغادرها روحه إلى قلب امرأة واحدة، وأنا ملكتُ روحه كليا.

هل كنتُ أنتظر إلى أن ينهار عليهما البيت بما فيه؟ وماذا كنتُ سأفعل أنا حينها بأنقاض رجل؟ وهل كان سيكون في وسعي حينها ـ لا قدر الله ـ أن أنظر في وجهه وقد فقد هو كل ما

كان يملكه؟ وهل كان سيكون بإمكانه هو أن ينظر في وجهي حينها وقد دمرتُ أنا كل شيء؟

كان يكفي وجودي في حياته لأكون مسؤولة عن كل دمار تؤول إليه حياته معها، لاسيما وأني امرأة تقودها بوصلة ضميرها إلى حيث شاء. الضمير! الضمير خنجر آخر كان يعذبني، كان يطعنني في صمت قاتل.

ماذا كنتُ لأفعل كي لا أخسر هذا الرجل إن كان مجرد وجودي في حياته كاف لتخسر هي رجلها؟ كان عقلي يكاد يتوقف عن التفكير، وكان قلبي يكاد يتوقف عن النبض كلما تصورتُ مجرد تصور أنني سأفقد يوما هذا الرجل. كان الدم يكاد يتجمد في عروقي كلما فكرت مجرد تفكير في أنني سأتوقف عن الخفقان له، فقلبي لم ينبض لغيره،

وقلبه كان قد توقف عن النبض لها منذ نبض لقلبي. آه، ما أمرّ أن ينبض لكَ قلب لا ينبض له قلبُكَ! كان هذا حاله معها.

بحيرة دموعي لم تكن لتجف كلما كنتُ أفكر في أنني قد أغلق يوما نافذتي في وجهه. لستُ أنانية لأقول إنني لم أفكر به، فهو أيضا لم يكن يجرؤ على الحياة دوني، لكنني لم أكن أقوى على تحمل الشعور بالذنب أكثر فأكثر إن كان مجرد وجودي في حياته خطيئة.

لماذا تركتُ نفسي تغرق إلى هذا الحد في بحره المالح؟ لماذا لم أنتبه منذ البداية إلى أن حساباتي كانت خاطئة؟ كيف كان لتلك المرأة أن تبتلع فكرة وجودي في حياته إن كنتُ أنا التي لا

حق لي عليه لم أتحمل مجرد فكرة أن تكون هي ــ صاحبة الحق كله ــ بين أحضانه؟

لقد روضتُ نفسي على معاقبة نفسي كلما أخطأتُ أو قصرتُ في حق أحد، ولم أتسامح حينذاك في معاقبة نفسي على حب شيء ليس من حقي أن أحبه، مهما كنتُ قد أخلصتُ في حبه وتماديتُ.

نفذتُ العقاب، وتحملته إلى آخر نفس إكراما لهذه المرأة التي لم أتحمل أن أتصور ولو مجرد تصور أن أكون في مكانها يوما وهي تعاقر كأس الهجر والنوى. لم أتحمل أن أكتوي بدمعة واحدة تذرفها هي عندما تكتشف وجودي في حياته، وما أكثر الدموع التي كانت ستذرفها هي! لم أتحمل

أن تخزني دموعها في أكثر منطقة حساسية: القلب.

نفذتُ قراري، وخرجتُ من حياته إلى الأبد دون حتى أن أودعه، وكان عزائي أن أصبر نفسي بما تيسر من ذكرى.

فعلتها. بمحض إرادتي فعلتها، وفارقت سماءه. أتآكل تحت وطأة الذكريات كشمعة تذوب شيئا فشيئا، وما من سبيل إلى التملص من سطوة حنيني الجارف إليه. فعلتُها، ومضيتُ إلى حال سبيلي كأني لم أكن في سمائه.

ما أشق أن تنقطع عني جذوري الضاربة فيه، لكنه شبح الأخرى يهددني كلما تمكن مني التوق. أأعود إليه؟ يكاد قلبي الذائب على صفيحة الشوق يتبرأ مني كلما نأيتُ خطوة عنه، لكنها

المرأة الأخرى رابضة في كف الحقيقة المرة. نفذت قراري ولن أعود. لن أرتمي مجددا في بحره لألعق ملح موتها وموته.

تطاول

كان يتسلل إليها خفية عن زوجته، ولم يكن يتسلل إليها إلا لماما. رغم فتور رغبته في وصالها، ظلت هي تتصبب شوقا إليه. وكلما اشتعلت جمرة الحنين في صدرها، تدعي هي المرض عله هو مالك قلبها يرأف بحالها ويدق بابها، وإن كانت هي على يقين من أن زوجته هي من عجل بخمود جذوة الحب الذي كان يكنه لها.

لم يكن كذلك قبل أن يتزوج. كان يسرها بطلعته البهية، ويتلهف على لقائها كلما عاد من سفره. كما كان يسارع إلى خدمتها رغم أنها كانت في غنى عن خدماته. لكنه منذ سجن نفسه بإرادته في قفص الزواج، تغير كليا ولم يعد يأبه بها، وكأن

زوجته سحرته لينشغل بها عن كل من سواها، أيا كانت معزته لهذا السوى.

صار ينأى عنها تدريجيا، وفشلت كل محاولاتها في استدراجه إلى صدرها. بل حتى تظاهرها بالمرض ما عاد يجدي. لم تعد زيارته لها تتعدى دقائق تعد على رؤوس الأصابع، وأحيانا تعد الدقائق هاته على رؤوس أصابع اليد الواحدة، مع أن الزيارة تلك لم تكن لتتم أصلا دون أن تشيع له هي مرسالا ينبئه بتعثر صحتها.

تفتعل هي المرض كلما امتحقها الشوق. وبعد طول انتظار، يدخل هو بيتها كالغريب، ويدعي ألف سبب وسب ليخرج على عجلة.

تعطلت لغة الحب الذي أينع في حدائقهما، ومات كل ما زرعاه من ورود ورياحين بمجرد أن

دخلت هذه الزوجة على حياته، فأتت على الأخضر واليابس من ذكرياته بين أحضان الأخرى.

يا للشماتة! أكان جزاء أمه التي حملته ووضعته وسهرت على رعايته أن يتسلل إليها خفية، وأن يعتصرها الحنين إلى رؤيته كما يتشوق العبد إلى رؤية الهلال؟!

اللعنة على هذه الزوجة الشؤم التي اختارتها له بنفسها.

لحرقة في نفسها

الاعتذار الذي يدمي عينيه: هذا ما كان ينقصها.

ــ "بحق الله عليه، وهل يكفي الاعتذار أو ينفع بعد الخراب الجاثم؟!".

ذاك ما كانت تنبس به دواخلها على وقع ارتجاج الذاكرة، وإن كانت على اقتناع تام بأن اعتذاره لن يقدم عندها ولن يؤخر شيئا بعد أن نفضته عن يديها.

في عز مواسم الحرقة، طفقت تتأمل رسائل أمس قديم. الأصابع ترتعد وتحتضر في الثانية ثوانٍ كلما لامست حروفه المتناثرة على أوراق سكنتها وما سكنته. مع كل ورقة تسقط من بين أصابعها، تسقط دمعة حرى تعتصرها ملء السعير الرابض

بين جنباتها بعد أن سقطت هي من حساباته. من حساباته سقطت هي مهما تمادى هو في مد منديل الحنين. عصية الدمع باتت بعد أن رحلت الدموع هي الأخرى، فقلما تجود عليها المآقي بدمعة.

_ "يا لقسوته يااااااااااااااه!".

انتفضت كالطير الجريح تنتحب لاعنة الحظ العاثر الذي ألقى بها في طريقه ذات مساء عاصف. تلقت عنه ضربة العاصفة، فكان أن عصف بها عن إصرار.

_ "يا لقسوته يااااااااااااه!".

انتفضت مرارا وانتحبت مع كل حرف حرف اقترفته أصابعه على امتداد صفحات بيضاء إلا منها. ملكته وما ملكته. مع كل حرف حرف

انتفضت مرارا وانتحبت. انتفضت مع كل حرف التقطته عيناها من سيرة الخراب الموزعة على أوراق بيضاء من كل ما احتوته.

ـــ "يا لقسوته يااااااااااه!".

أكان عليها أن تتدرب على تلقي المزيد من الطعنات من شمعة خالتها قبس نور، فكان أن أتت نارها على الأخضر والأخضر؟!

ـــ "يا لقسوته يااااااااااه!".

متعبة الأحداق مضت ترثي ذاكرة الأمس. متعبة الأحداق مضت تنتفض مرارا وتنتحب كعصفور جريح.

ـــ "يا لقسوته يااااااااااه!".

ما كان عليها أن تنبش في أوراقه القديمة لتجدد العهد بحروف شكت للحظة في أنها تحفظها عن

ظهر قلب. وما كان عليه أن يحرّف مبنى أشعاره المترامية إليها أول ما فكر في نشرها في كتاب. أَوَثَمَّةَ من تنسى حرفا كتب إليها بمداد القلب (أو هكذا خالته)؟! قسوة مضاعفة منه أن يسرق عمرها وأحلامها الصغيرة، ثم يسرق ما تبقى لها من ذكرى: حروفه.

_ "يا لقسوته يااااااااااااه!".

كان عليه أن يفهم في وقت مبكر أن الحروف التي بللت رسائله بنقيع وريده (أو هكذا خالتها) عادت من نصيبها وحدها، ولها وحدها حق التصرف فيها. وكان عليها أن تفهم أنه ما كان عليها أن تفتح كتابه لتصيبها لعنته مجددا.

يكفي أن تنتبه إلى أنه عمد إلى تحريف تفاصيلها الصغيرة المضغوطة بين دفتي كتابه لتلعن

العمر الذي صرفته في البكاء على حروف رسمته في عينيها ملاكا.

_ "يا لقسوته يااااااااااااه!".

ما أعطاها غير حروف اختلسها من عمر سابق... حروف صنعت منها أميرة من ورق. حتى الحروف استكثرها عليها، ومضى يرتق بها عباءة سيرة لم تكتمل إلا في عيون قرائه. قسوة منه أن يهدم المبنى على حساب معنى أبدا لن يسقط من حبل ذاكرتها.

قُبلة

ظل ينتفض في مكانه لما رآها تهرول من بعيد وقد ألقت بسلال الشوق وصراخها يمزق الأفق. ظل ينتفض وكأنه يحاول أن يحلق بعيدا عن المكان والزمن. ازداد انتفاضه لما رآها تركض إليه من بعيد، بينما هو مُقْعَد في مكانه.

أدرك ببديهته أنها تشتهي قُبْلَة طويلة تطبعها كالمعتاد ملء الشوق. ظل ينتفض هو وكأنه يعلن احتجاجه على هذه القبل الموسمية. ظل ينتفض أكثر فأكثر لما استشعر صراخها يطوقه أكثر فأكثر. ظل ينتفض في مكانه وكأنه يحاول أن يقتلع نفسه من الجذور. تقترب هي منه حد التماس، تتعذر عليه هو المقاومة.

ها هي ذي تأخذ في الانحناء وتجبره على الميلان بجذعه إلى الخلف أكثر فأكثر. وأخيرا يسلم الصفصاف الحزين أمره للريح، وتكتمل القُبْلَة على مرأى ومسمع من صخور الجبل.

شيء من الماضي

لا أصدق!

لا أصدق أنك عدتَ بعد كل هذه السنين لتطاردني مجددا. تعود بعد كل هذه السنين لتهددني بما لم احسب حسابه.

أمس كنتَ تطاردني لتبلغ وصالي وتتباهى بين أقرانك الوقحين الذين لم يحظوا بحب امرأة ولم يعرفوا يوما معنى الحب. واليوم تطاردني لتحيي ما كان بعد أن قتلتَه.

امرأة عاشقة كنتُ بالأمس! والمرأة حين تعشق تتحول إلى طفلة، تستقبل الحياة بعيون طفلة، وتكتب لمن تحب ببراءة طفلة.

نسيتُ أنا كل ما كتبته لك بالأمس، لكني لم أنس أبدا أني كتبتُ لك كثيرا، أكثر مما قد يتصوره عاقل.

هل قلتُ: عاقل؟! صحيح، فالأسوياء سرعان ما يتحولون إلى مجانين ما أن يقترفوا ذنبا عظيما كالحب.

لم أنتبه يوما إلى تلك الحماقات التي ارتكبتُها مطولا وأنا أكتبُ لك. واليوم ها أنت تعود محملا برسائلي القديمة لتجبرني على الانصياع لك.

لا أصدق أنك تخاطر كل هذه المخاطرة فقط لتحيي مشاعر تلبدت وتبلدت!

ألن تقلع عن عادتك السيئة تلك؟!

انظر كيف تتجرأ وتساومني وتشهر رسائلي القديمة في وجهي!

بأي منطق تريدني أن أصدق أنك تذكرت فورا أنك تكن لي كل هذه المشاعر الرقيقة المرهفة وأنك قررت من لحظتها أن تبحث عني؟!

كأنك لم تكتشف قدر ما تكنه لي إلا بعد أن لمحتَ وجهي في نشرات الأخبار المتلفزة وأنا أتسلم براءة الاختراع ممن لم يهمك يوما أن تعرف مدى رغبتي في الوصول إليهم والمثول بين أيديهم مبتسمة ابتسامة الانتصار.

الآن بعد أن أصبحتُ شيئا آخر تريد أن تتسلل إلى حياتي كجرذ قذر، ولا يهمك أن تشتعل رسائلك اشتعال فضيحة، ولا يهمك أن يرد اسمك بين ثنايا الرسالة، فأنت كعود الثقاب، كأصبع سيجارة يحرق الشفاه ولا يدري أنه يحترق قبل الشفاه.

أكتب لك ملء المرارة للمرة الأخيرة، ولا أصدق أنك تكتب لتشوش عليّ بعد أن لمحت خاتما ماسيا في أصبعي وكأن كل ما يهمك هو أن تصل رسائلي القديمة إلى من ألبسني الخاتم حتى تفرح أنت بتخليه عني!

قد أخسر أنا، لكنك لن تربح شيئا يقينا.

كن رجلا مرة واحدة في حياتك واتخذ قرارا صائبا واعرف ما تريد. فالخاتم أنا من ألبستُه لأصبعي، ولا وجود لرجل في حياتي حتى تساومه. ولتحترق أنت والرسائل.

بعد أن طويتُ صفحتك أسقَطْتُ الرجل من حساباتي.

أحقّ بأن يُعْشَق

زحفت على بطنها مسافة سنتيمترات لتنتشل من حزمة كتب كتابا تأخرت كثيرا في قراءته. تأبطته وهي تتصبب شوقا إلى فتحه. استأنفت الزحف مجددا إلى فراشها. ضمت الكتاب إلى صدرها، والتصقت بالوسادة فور ارتمائها عليها والوجع خنجر يذبحها في صمت، وما أفلح الصمت في كتم أنفاس دموع راقتها الإقامة على صفحة وجهها، فانتصبت الدموع شلالا يجتر خساراتها الفادحة.

ـــ "في عز الغسق يمر بي خاطر يذكرني بموعدك، وما أخلصتُ لموعدكَ يوما... في عز الغسق أذكركَ، افتح كتابكَ، أرنو إلى حروفكَ والعين دامعة، والقلب يسبّح نبضا... أكان عليّ

أن أنأى كل هذه المسافات الشاسعة التي حلقتُ فيها بعيدا عنكَ لأفطن كم تخليتُ عن حروفكَ وما تخليتَ؟!... في عز الغسق أذكركَ، ترشقني عيناي بحجارة الندم وقد ضاع من العمر أكثره... في لجة الصبا تهتُ، وما طمعتُ في قربك وأنتَ الأقرب من أهداب العينين... ملء الحنان تطوقني حروفكَ بعد أن هجرني سواها، وكل ما سواها ضياع... كلما أردد حرفا من حروفك تتسع بركة دموعي، ويقيدني ندمي، وأدرك كم أضعتُ الطريق إلى ذاتي وكم تأخرتُ عن موعدكَ... على مدى عمر تعطل ذاكرتي سحابة صمت لأكتشف أن الحب عبادة، وأنا عبدت سواكَ ملء النبض إلى أن تعطل النبض في سيقان قادتني إلى سواكَ... في

عبادة سواكَ صرفتُ عمرا، وها انصرف عني كل من سواكَ وأَسْنَدَتْنِي حروفكَ..."

مرتعشة تتلقف الكتاب، تجهش بالبكاء، تُقَبِّلُه، تضمه إلى صدرها بقوة إلى أن تفارقها الروح.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
ظله المار من هنا	3
موعد مع الدموع	9
Nina Ricci	18
كلما ناداها رجلها: صغيرتي	24
أمومة	32
غابتنا نخيل	37
أشياؤها تناديني	47
عساها لا تردني	52
مكافأة	56
وداعا حبيب العمر	59

تطاول 68
لحرقة في نفسها 72
قُبْلَة 78
شيء من الماضي 81
أحق بأن يُعْشَق 86